

الحركة الإسلامية والتحديث

تأليف :

د/ راشد الغنوشي

و

الشيخ الدكتور حسن الترابي

جمع وترتيب قناة أوراق الحركة الإسلامية على تيليقرام

https://t.me/awragharkateleslamed

الحركة الإسلامية والتحديث

تأليف

الأستاذ
راشد الغنوشي

الدكتور
حسن الترابي

دار الجيل
بيروت

مكتبة دار الفكر
الخرطوم

تقديم

لقد ظلت المجتمعات الاسلامية في الشرق الاوسط منذ الاستقلال تتقلبها الحكومات الوطنية والاشتراكية والدعاوى القومية والعلمانية ؛ تلك الحكومات والمذاهب التي لم تفلح في أن تقدم حلا لمشكلات المجتمعات ولا تجسيدا لآمال شعوبها . انما كان حصادها بعد تجربة استمرت نصف قرن من الزمان مزيدا من التبعية للغرب والظلم الاقتصادي والهزائم العسكرية والدكتاتوريات السياسية والفرقة والشتات وقد تبين زيف الشعارات التي كانت ترفعها والدعاوى التي كانت تمني بها الشعوب التي تعاني من الفقر والاستعمار والتخلف فتحرك ضمير الامة النابض وعلا صوت الشعوب المسلمة وأقبل الجيل الجديد بوعي يستلهم الاسلام أسسا لحضارة جديدة الشيء الذي جعل دور الحركات الاسلامية يتنامى ويتعاظم لكي تستجيب لتلك التحديات الحضارية وتقدم الاسلام وتجسده في واقع

المسلمين حتى لا تتبدد العواطف الدينيـة وتتفجر في غير مجراها .

ما هي الحركات الاسلاميـة وما هي خصائصها ؟ ما دورهـا في تجديد الدين ؟ كيف يكون التجديد وما هي تقنيات الحركة الاسلاميـة ووسائلها في العمـل ؟ ما هي خطتها للتغير الحضاري ؟ حول هذه الاسئلة نقـدم الى القارىء الكريم عالمين من علماء الاسلام وجائلين في حقل العمـل الاسلامي هما الاسـتـاذ التونسي راشد الغنوشي والدكتور حسن عبد الله الترابي في محاضرة ألقياها في الموسم الثقافي الذي أقامه اتحاد طلاب جامعـة الخرطوم دورة ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠م تحت شعار « التحدي الحضاري في الشرق الاوسط » نأمل أن يفيد القارىء الكريم منهما وبالله التوفيق .

الاتجاه الاسلامي بجامعة الخرطوم

الجزء الأول

بقلم

الاستاذ راشد الغنوشي

مدخل

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنـــا وسيئات أعمالنا ــ وصلى الله وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم • أساتذتي الكرام ، أيها الاخوة المؤمنون الســلام عليكم ورحمة الله وبركاته•

ترى ماذا يفعــل تلميذ يجــد نفسه تجاه شيوخــه وأساتذتــه في منصب الموجــه الا ان يستعين بالله باذلا قصارى جهده في أن يكون أمينا فيما تعلمه ، فان فاتــه فضل الابداء لم يفته فضل الامانة في الفهم والنقل عنهم ، حتى يطمئنوا الى ان جهودهم في التربية والتعليم لم تذهب سدى، بل صادفت قلوبا واعية • ذلك هو حالي ــ بالضبطــ وقد شرفني اخوتي أعضاء اتحاد جامعة الخرطوم بالدعوة للحضور والحديث اليكم أساتذتي واخوتي الكرام • ولا يفوتني هنا ان ابلغكم تحيات اخوانكم الطلبة واخواتكم في أسرتي مجلــة المعرفــة والمجتمع التونسيتين واكبارهم لعملكم وتجربتكم الرائدة في القيادة الجماهيرية الطلابية

وتمنيهم لكم بالنجاح في مواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه المجتمع السوداني وبقية المجتمعات الشرق‌ـاوسطية والاسلامية عامة . ولئن كانت تحدياتنا متنوعة : سياسية، عسكرية ، اقتصادية ... الخ فان جوهرها حضاري بمعنى ان افكارنا وقيمنا وما انبثق عنها من مؤسسات وأساليب حياة لم تقدر على تلبية حاجاتنا وحجم مشكلاتنا . وما تشهده بلداننا من فوضى ادارية وسلوكية واجتماعية وهزائم عسكرية وديكتاتوريات سياسية ليس الا تعبيرا عن هذا النمط الحضاري المتخلف الذي يسود بلداننا .

ان اسرائيل ومن ورائها لا يتحدثون بقوة السلاح ووفرة المال والرجال وانما بنمط حضاري يقدم لافراد تلك المجتمعات قدرا من الاتجاهات والمسالك تتيح لطاقاتهم ان تثمر وتنتج وتتبصر على كل المستويات ، على حين ان العكس تماما هو الذي يحدث في بلداننا . ومن ثم فما نحن في حاجة اليه ليس مجرد تقنيات نستوردها ــ كما يفكر في ذلك بعض فتيان السياسة في بلداننا ــ وانما ثورة حضارية تعيد البناء على أساس جديد . ثورة تزودنا بعقلية حضارية وخلق حضاري وسلوك حضاري يستجيب لمكنوناتنا وحاجاتنا ويطلق طاقاتنا المعطلة ويعيد الحياة والحركة الى جسمنا المشلول . من هذا المنطلق نتحدث عن الاسلام والحركة الاسلامية .

ان البحث في الاسلام والنضال من أجله خاصة لدى جيلنا الذي ترزح روحه تحت وطأة الهزائم العسكرية وتسلط الانظمة الديكتاتورية والتبعية الثقافية والسياسية والفقر والذل والحرمان ، هـذا البحث وذلك النضال لا ينطلقان من منطلق معرفي هو اشباع الرغبة في المعرفة والاطلاع ولا من منطلق صوفي يستهدف البحث عن ملجأ أمين في الاسلام ينجي الفرد من القلق والحيرة وانما هي مشكلات الواقع المعيشي الحادة وفشل الحلول الغربية في الخروج بالامة من المأزق ، ذلك هو المحرك الكبير في دفع الاجيال الى الاسلام وفي التزامه في صفوف الحركة الاسلامية . فما هي الحركة الاسلامية ؟ وما هي الصفات المشتركة بين فصائلها ؟ ما هي تقنياتها وأساليبها في تغيير المجتمعات ؟ ما هو اسهامها في تجديد الفكر الاسلامي ؟ وهل يمكن ان نتبين من خلال كل ذلك ملامح استراتيجية لحركة الاسلام في الغد ؟

تجديد الدين

أود ان ألقي نظرة قبل ذلـك على حركة التجديد في الاسلام : يقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ « ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ـ رواه ابو داؤود ـ لقد كان الانسان وسيبقى ابدا في حاجة الى النبوة لكي يفقه معنى وجوده وليستبين نهج حياته وليقوم بدور الخلافةوقد جاءت الرسالات تترى حتى نزلت آية « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » فكانت اعلانا صريحا بان الانسان قد تركز وانه قد فقه قانون السير الذي اراده الله لحياة البشر ، فما عادت به حاجة الى ان يجلس الى جانبه باستمرار سائق حتى يقود سيارته . غير ان البشر تعرض لهم خلال مسيرتهم عوارض من الجهل بقانون السير او بطريقة تطبيقه ازاء حالات جديدة من التعقيد ، فكانت الحاجة تدعو الى وجود رجال يعيدون للقانون نقاوته وينفون عنـه ما التبس فيه من أوهـام البشر وتجاربهم

الناقصة ويعالجون على ضوئه ما يستجد من تطور الحياة ومشكلاتها ــ على ضوء النصوص الثابتة والغايات الكبرى الشريعة ــ مما يعيد للدين شبابه ويحفظ العلاقة بين المتطور والثابت ، بين القرآن والزمان ، وحتى يبقى القرآن قادرا ابدا على هداية البشر في طريق الخير والحق والعدل.
وان خلود الاسلام وبقاء أمته انما يرجعان الى أمرين :
الاول : ما في طبيعة هذا الدين من مرونة وانسجام مع الطبيعة البشرية وقدرة على تلبية احتياجات الانسان مهما بلغ مستوى تطوره . الثاني : ان الله ــ عز وجل ــ قد تكفل بمنح الامة الاسلامية رجالا أكفاء أقوياء يرثون الانبياء ويقومون بمهمة تنقية الدين من الشوائب وتقديم الحلول لمشاكل العصر على ضوء مبادىء الدين .

نشأة الحركات الاسلامية الحديثة

لقد أسس النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ دولة كانت تجسيدا رائعا لمبادىء الاسلام في العدل والحرية والاستقلال واستمرت هذه الدولة بعد وفاته تحت قيادة اصحابه ، ورأت البشرية من خلالها آمالها ومثلها العليا وقد تحققت فدخل الناس في دين الله أفواجا مما أحدث بالاضافة الى ما جرته حروب الردة من خسائر في صفوف الاصحاب الكرام ما أسماه أبو الاعلى المودودي بحق : الانقلاب الخطير في مجرى التاريخ الاسلامي • اد تسببت هذه الظاهرة في تقلص عدد المسلمين في الدنيا من ذلك النمط المثالي الرائع الذي كان مسلما حقا يطابق قوله فعله ومن جهة أخرى تصاعدت نسبة الذين هم وان كانوا قد دخلوا الاسلام اعجابا بمبادئه الا ان الناحية السلوكية واحيانا العقائدية فيهم لم تكن منطبعة كليا بطابع الاسلام • وهذه الظاهرة قادت الى انقلاب خطير أولى النكبات وهي التباعد التدريجي بين الدين والسياسة حتى لم يبق من الخلافة مع

مرور الزمن الا رسمها ـ كما يقول ابن خلدون ـ وجاء الاستعمار الحديث ليهدم هذا الرسم ولتنشأ في العالم الاسلامي الدولة العلمانية والدولة الاشتراكية والدولة التي تزين دستورها بالاسلام •

لقد أحدث سقوط الخلافة وما سبقه ولحقه من غزو استعماري صدمة عنيفة في شعور المسلم أيقظته من نومه الانحطاط وأزالت عنه الطمأنينة المزيفة التي كان يعيش عليها بأنه على كل حال هو من خير أمة أخرجت للناس • ومما زاد في هذه الصدمة واستفزاز شعور المسلم ما صاحب الحملة الصليبية على العالم الاسلامي من غزو ثقافي وتبشيري يجتث الثقافة الاسلامية من جذورها وينشىء جيلا من المسلمين منبتا عن جذوره مولعا بالمستعمر ـ شأن المغلوب مع غالبه ـ فالعجب ـ والحال هذه ـ ان كان السؤال المطروح في العالم الاسلامي في أوائل هذا القرن : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ وكان الجواب على نحوين متناقضين لا يزالان حتى اليوم يقسمان العالم الاسلامي الى معسكرين متصارعين • الجواب الاول : ان مشكل التخلف يكمن في الاسلام ذاته فلا بد من تطويره وتحويره حتى ينسجم مع الغرب فيلحق المسلمون بركب الامم المتقدمة وتطور هذا الجواب عند الماركسيين الى الدعوة الى التخلي عن الاسلام جملة ومحاربته ولذلك

كانت ليبرالية طه حسين تمهيدا لماركسية لطفي الخولي وعبد الله العروي .

الجواب الثاني : ان المشكل يكمن في المسلمين لا الاسلام . تخلى المسلمون عن الاسلام في صورته الحقيقية فحدث الانحطاط والحل حركة تجديد تمسح عن الاسلام غبار الانحطاط فيستعيد حيويته وقدرته القيادية على ايجاد مجتمعات اسلامية ليست متقدمة فحسب بل تمثل أعلى صور التقدم . واذا كان الاتجاه الاول قد تبلور في مجموعة من الحركات الوطنية والقومية والاشتراكية التي استمدت وتستمد صورها ومثلها من الغرب الرأسمالي والاشتراكي وهي التي حكمت العالم في مرحلة ما بعد الاستقلال وظهر فشلها واضحا في احداث نهضة في العالم الاسلامي بل اتجه المسلمون في ظل قيادتها الى مزيد من التبعية للغرب ومزيد من الهزائم العسكرية والاقتصادية والممارسات الديكتاتورية البشعة . فان الاتجاه الثاني قد عبر عن نفسه على لسان عدد من المفكرين والعلماء المجددين كالافغاني واقبال ومصطفى صبري والسوسي وابن باديس وتبلور وأخذ شكلا واضحا على يد الامام البنا والمودودي وقطب والخميني ممثلي أهم الاتجاهات الاسلامية في الحركة الاسلامية المعاصرة . وأخذ دور هذه الحركات ــ لا على المستوى المحلي بل على المستوى العالمي ــ يتنامى ويزداده بالاضافة الى أنها رغم أنها تندرج في خطها العام في سياق

حركة التجديد المتواصلة عبر التاريخ الاسلامي فان مفهومها للتجديد أخذ بعدا جديدا هو التأسيس أي اعادة البناء من الاساس ، ذلك انه طالما بقيت الدولة الاسلامية قائمة ولو في شكلها الانحطاطي فان عمل المجددين كان عبارة عن عملية اصلاح وترميم وتقويم للمعوج ونبذ للدخيل على الاسلام : وفي هذا الاطار كان عمل ابن حزم وابن تيمية. أما والبناء قد سقط جملة وأصبح الاسلام غير معترف له بالحاكمية والسلطان لزم أن يكون التجديد لا اصلاحا بل تأسيسا ، وما نشهده اليوم على ساحة العالم الاسلامي هو تجديد من هذا النوع ، فقد سقط المجتمع الاسلامي القديم وانتهت بذلك دورة من دورات الاسلام الحضاري، واليوم يبدأ الاسلام مع نجاح الثورة في ايران وباكستان دورة حضارية جديدة .

ماذا نعني بمصطلح الحركة الاسلامية ؟

ان للدعوة للاسلام والتحرك به أساليب واتجاهات كثيرة كالوعظ والارشاد ونشر العلم والتربية على العبادة والذكر وانشاء مؤسسات صحية وثقافية وللخدمات الاجتماعية ولكن الذي عنينا من بين ذلك الاتجاه الذي ينطلق من مفهوم الاسلام الشامل مستهدفا اقامة المجتمع المسلم والدولة الاسلامية على أساس ذلك التصور الشامل وهذا المفهوم ينطبق أكثر ما ينطبق على ثلاث اتجاهات

كبرى : الاخوان المسلمون : الجماعة الاسلامية بباكستان وحركة الامام الخميني في ايران . وما تبقى من اتجاهات اسلامية اما هو تابع بشكل او آخر لاحد هذه الاتجاهات او هو مبتدىء لم يتبلور بعد ، أو أنه قاصر عمله على جزئيـة من جزئيات الاسلام والعمـل الاسلامي كالوعظ والدعوة والارشاد والتربية والذكر .

مقومات الحركة الاسلامية

ما هي أهم العناصر التي تشكل ماهية الحركة الاسلامية ؟

١ ـ الشمول :

اول هذه المقومات فكرة الشمول : فالاسلام في هذه الاتجاهات الثلاثة يؤخذ على انه كل مترابط ، كل جزئية فيه ترتبط بغيرها فالعقيدة والشريعة والعبادة كل متكامل ومن ثم لا مجال للتفريق بين الدين والسياسة والدين والدولة . والنصوص الصادرة عن كل هذه الاتجاهات كثيرة اكتفي بنص للامام الخميني يقول فيه : « ان أول واجبات الفقيه العارف بأحكام الشريعة هو النهضة والقيادة من أجل اعلاء كلمة الله في الارض والجهاد المستمر لتطهير أرض الله من اعداء الله ـ عز وجل ـ عرّفوا الناس بحقيقة الاسلام حتى لا يظن جيل الشباب ان أهل العلوم في زوايا النجف يرون فصل الدين عن السياسة وانهم لا

يمارسون سوى دراسة الحيض والنفاس ولا شأن لهم في السياسة • ان النضال السياسي واجب وطني » • ومن نتائج فكرة الشمول هذه العمل على تكوين دولة اسلامية• ولقد بذلت الاتجاهات الاسلامية الثلاثة جهودا جبارة لتحقيق هذا الهدف ومن فروع النظرة الشمولية للاسلام اعتبار المسلمين كلهم على ما بينهم من خلافات كيانا واحدا فرقته أحداث الزمان ، وفرض على المسلمين بعث الكيان الدولي للاسلام •

ومن أبعاد فكرة الشمول ـ أيضا ـ الاهتمام بالقضية الاقتصادية والاجتماعية • يقول الامام الهضيبي : « يجب على ولي الامر ان يساعد الناس على ايجاد اعمال لهم ويتعهدهم حتى يصلح حالهم • فاذا كان دخل الانسان لا يكفيه وكان غير قادر على العمل فهو في كفالة الدولة • فان لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء أصبح فرضا على كل من عنده فضل من المال أن يعود به على الفقراء فاذا منع الفقير حقه فان له أن يقاتل عليه » •

٢ ـ القضية الوطنية :

ومن هذه المقومات الاهتمام بالقضية الوطنية • انه لا تناقض في نظر الحركة الاسلامية بين العالمية والوطنية اذ الوطنية هي منطلق العالمية ، وان عناية المسلم باصلاح

ومنه واجب ديني . اذ كلما تقدم هذا الوطن لا واصبح أقدر على اعانة الاوطان الاسلامية الاخرى والناس حيثما كانوا . يقول المودودي : « ان الجماعة الاسلامية ليست بجماعة تستهدف القومية الوطنية ولا تقتصر دعوتها على أمة بعينها ووطن بعينه بل الدعوة التي ترفعها عالمية الاهداف . غير ان الجماعة تؤمن اننا معشر المسلمين في باكستان ما دمنا لا نجعل بلادنا مثلا حيا للنظام الاسلامي فانا لا نقدر على اقناع الناس بسلامة هذه العقيدة » . فالمسلم اذا وطني وليس أولى منه بهذه الصفة لانه الامتداد الحقيقي لثقافة الوطن وأمجاده وغيرهم ممن لا يحملون دعوة الاسلام هم غرباء عن هذا الوطن بل هم بقايا تركها المستعمر بعد انسحابه .

٢ ـ السلفية :

ومن مقومات هذه الحركة السلفية ونعني بها استمداد الاسلام من أصوله دون تعصب لما وجد في تاريخ الاسلام من نظريات واجتهادات . فالاصل ما ورد في الكتاب والسنة وعصر الخلفاء . يقول البنا : «وتستطيع ان تقول ولا حرج عليك ان الاخوان المسلمين دعوة سلفية لانهم يدعون الى العودة بالاسلام الى معينه الصافي كتاب الله وسنة رسوله» . ويقول الامام الخميني عندما سئل عن نظام الحكم الذي يسعى اليه هو سني أم هو شيعي ؟ فأجاب : « اننا نريد

أن تحكم بالاسلام كما نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا فرق بين السنة والشيعة لان المذاهب لم تكن موجودة في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ».
ومن ثم فان تهمة الوهابية ظلت تلاحق الحركة الاسلامية في كل مكان مما جعل الامام الخميني يندد بأولئك الذين لا شغل لهم الا بالجزئيات واتهام فلانا بكذا أو آخر بكذا. يقول: « هنالك أجهزة معروفة تسعى لاثارة الضجة حول مسائل ثانوية فعلى سبيل المثال يضيعون مناسبات ثمينة وفرصا غالية في الحديث عن ان زيدا من الناس كافر. أو فلانا مرتد أو ان فلانا وهابي المذهب وذلك بسبب عمل الحركة الاسلامية في ايران المتواصل ضد التراث البدعي الذي ورثوه وورثناه جميعا عن عصر الانحطاط ».
ولا تعني السلفية هنا كما هي عند البعض حربا على المذاهب الفقهية أو العقدية. كلا! فهذا تمزيق لكيان الامة وانما السلفية تعني أولا: التحري في معرفة حكم الله من الكتاب والسنة قدر المستطاع. ثانيا: عدم التعصب للمذهب والاشتغال بالدعوة اليه حتى يصبح المذهب بديلا عن الاسلام دون التسامح مع المخالف، واعتبار أخوة الاسلام فوق أخوة كل فرقة وكل مذهب. ويلحق بالمعنى السلفي تجميع المسلمين حول ما هو معلوم من الدين بالضرورة ابعادا للخلاف وتوحيدا للصفوف حسب القاعدة: « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ».

٤ ـ البعد الايماني :

ومن مقومات الحركة الاسلامية البعد الايماني أي ان الحركة الاسلامية تؤكد في تربيتها على ضرورة الاخذ بالاسباب ولكن مع الاعتقاد بأن هذه الاسباب لا تؤدي الى نتائجها الا باذن الله .

٥ ـ الشعبية :

ومن مقومات الحركة الاسلامية أيضا الشعبية وهي ان الحركة الاسلامية ليست حركة فئة معينة أو طريقة صوفية تحصر عملها في مجموعة المريدين . انها ضمير الامة المتحرك وأعماقها الثائرة . ومن ثم فهي ترفض مقولة الصراع الطبقي وتعتبر ان الاسلام ـ والاسلام وحده قادر على ازالة كل ألوان الظلم والاستغلال داخل المجتمع الاسلامي ولكن في مجتمع لا يطبق الاسلام حقيقة تتولد الفوارق الطبقية والحركة الاسلامية عندئذ تجد نفسها منحازة الى صفوف الفقراء بأمر من الله « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . « عبس وتولى ان جاءه الاعمى ... » . « اللهم احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين » . فحتم على الحركة الاسلامية ان تحشر نفسها في زمرة المساكين .

ولقد استطاعت الحركة الاسلامية المعاصرة ان تحرر ــ الى حد ما ــ الاسلام من الطبقة الحاكمة . والاسلام يتحول كل يوم وفي اكثر من بلد من ان يكون ملكا لحاكم لان يكون ملكا لشعب ، والذي حدث في ايران هو تسلم الجماهير للاسلام . لقد بدأت في ايران عملية لعلها من أهم ما يمكن أن يطرأ في مسيرة حركات التحرر في المنطقة كلها وهي تحرر الاسلام من هيمنة السلطات العاملة على استخدامه في وجه المد الثوري في المنطقة .

من انجازات الحركة الاسلامية

لقد ورثت الحركة الاسلامية تركة ثقيلة من عصر الانحطاط : جمود وعطالة في الفكر ونمط فردي قبلي ديكتاتوري من الحضارة زاده الغزو الفكري ثقلا . ورغم ذلك فقد استطاعت الحركة الاسلامية بفضل الله بعد جهاد طويل خلال ربع قرن من الزمان ان تنفض عن الاسلام غبار عصر الانحطاط وان تحرره من هيمنة ثقافة الغرب وان تقدم للامة عنه تصورا شاملا تتجاور وتتناسق فيه الجوانب السلوكية والعقائدية والاجتماعية . كما استطاعت ان تنزل بهذا التصور الشامل ساحة المعركة على المستوى الشعبي تناضل ضد الخرافة والبدع . تناضل على مستوى المراكز الثقافية التي أقطعها الغرب تلامذته فاحتكروا سلطةالقيادة والتوجيه فيها . نزلت العناصر الاسلامية هذا الميدان فأبلت خير البلاء واستطاعت بعد كفاح مرير ان تنقذ جانبا كبيرا من هذا الجيل من بين براثن الغرب وبراثن الانحطاط وتسلمت الحركة الاسلامية اليوم في أغلب الجامعات في

العالم الاسلامي على المستوى الطلابي – على الاقل – مراكز القيادة واجتماعنا هنا في ظل هذه المؤسسة المباركة هو ثمرة لهذا الجهاد الطويل الذي خاضته الحركة الاسلامية في السودان ، ولو شئنا ان نستمر في رصد مكاسب الحركة الاسلامية المعاصرة على المستوى الفكري أو مستوى الحركة لطال بنا الحديث ، ويكفي لاخذ فكرة عن هذه الانجازات ان نعلم ايها الاخوة الكرام ان الخلافة العثمانية في القرن التاسع عشر استبدلت القوانين الاسلامية بقوانين غربية فيما يسمى بالتنظيمات كما فعل بـاي تونس نفس الشيء سنة ١٩٦٤م دون ان تحرك المؤسسات الدينية ساكنا لا بسبب جبن وانما لانعدام الوعي بأن تلك القوانين تمثل جوهرا في الاسلام .

اما على المستوى التعبدي الشعبي فلا تزال بعض الصور الانحطاطية قائمة في بلداننا حتى اليوم وعلى المستوى الثقافي فقد كان الخيار أمام المثقفين في أوائل هذا القرن حاسما بين الاسلام والرضى بالجهل والتخلف أو العلم مع ما يصحبه حتما من تحلل والحاد .

المشكلة الكبرى للحركات الاسلامية

قلت ان التهوين من انجازات الحركة الاسلامية خاصة من طرف هذا الجيل الذي فتح عينيه على مفاهيم اسلامية ناضجة وأساليب في التربية والتوعية وعلى جماعة اسلامية مناضلةلهو من أخطر ما يمكن ان تصاب به الحركة الاسلامية ولكن على نفس المستوى فان اقبال الجموع الكبيرة عليها سيطرح امامها سؤالا هاما : ماذا ستفعل بهذه الجموع المقبلة عليها ؟ كيف ستوظفها في خطة التغيير في الخطة الحضارية ؟ حتى لا يغدو عملها ـ كما يقول المرحوم مالك ابن نبي وهو يتحدث عن عمل الانسان المتخلف ـ الجمع والتكثير • ومعلوم ان أكوام من الحجارة مهما كثرت لن تصنع بناءا ما لم تدرج ضمن خطة مسبقة ، ومن هنا ظل العمل الاسلامي في حالة ستاها فتحي يكن حالة التكامل والتآكل : كلما ارتفع البناء قليلا وابتهجنا بأنه أوشك أن يكتمل انهار لاول دفعة من يد قوية ، بل أحيانا يسقط من تلقاء رد فعل عدم تماسكه الداخلي •

ان حال العمل الاسلامي هذا يشبه حال التقنية القديمة . لقد كانت التقنية القديمة تقوم على مجرد التجربة . ان الفرق بين التقليدي والمهندس هو ان البناء التقليدي يبدأ عملية البناء وفقا لفكرة مسبقة غير مدروسة عن نوع البناء الذي يريد فان سقط البناء أعاده على نحو آخر حتى يستقر . أما مهندس البناء فيبني البيت في رأسه قبل أن يجهزه في الواقع . يبنيه كفكرة ثم يجسم تلك الفكرة على الورق مقالا وفق حسابات هندسية ، فاذا استقر البناء الهندسي على الورق انتقل بجسده على الواقع مستندا الى علم الهندسة . وبذلك تغدو التقنية كما هي في الواقع تطبيقا للعلم ، ويوفر الانسان على نفسه جهودا كثيرة . أما البناؤون المسلمون فلا يزالون مجرد رجال تقنية وهم في أحسن أحوالهم يمارسون تجربة المحاولة والخطأ هذا في أفضل احوالهم اما في حالات اخرى فهم على تكرار أخطائهم ماضون دائبون وذلك راجع الى العطالة التي أصابت عقل المسلم فما عاد يفقه في أبعاده ولا الواقع في تعقداته ولا السبيل الى نقل الاسلام الى الواقع ولا الارتفاع بالواقع الى الاسلام . ان عقل المسلم ظل قرونا طويلة مترنحا بين سكرة تواسية وشطحة حلاجية فاذا أفاق منها عالجته بطشة حجاجية . وان آثار هذه السكرة لا تزال عالقة تغشي الابصار وتمنع الرؤية الصحيحة والتخطيط العلمي على ضوء المعطيات الواقعية .

الاستراتيجية والتغيير الحضاري

انه في حين حشدت كل الاطراف السياسية خططها المغيير بدأ الاسلاميون يكدسون ولا ينون • انه لمكسب عظيم أن تربي الشباب الصالح في مجتمع يزخر بالاغراءات ولكن هذه التربية نفسها ينبغي أن لا تكون معزولة عن استراتيجية الحركة الاسلامية في التغيير في المجتمع • ان في جسد المجتمع كما في جسد الفرد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ، ولقد حدد القوميون هذه المضغة فعمدوا الى الجيش يكثفون فيه نشاطهم حتى بلغوا مراكز قيادية فيه انطلقوا منها للسيطرة على المجتمع كله • وحدد الشيوعيون هذه المضغة فانطلقوا الى النقابات خاصة وجعلوها مكانا لعملهم يجندون الطبقة العاملة ويوهنون السلطة حتى تضعف فينقضوا عليها وينقضوا على المجتمع كله • بينما الحركة الاسلامية لم تحدد بعد هذه المضغة الاجتماعية وظلت توزع جهودها على كل المستويات فتبقى ضعيفة في كل المستويات • لا

حدود أفرادها وانما تتبعهم من وراء فلا تحدد للعاملين — مثلا — المنتمين اليها اختيارات وتخصصات محددة لخدمة خطتها لانها ليست لها خطة وآية ذلك ما نرى من اقبال الاسلاميين على الكليات العلمية والتخصصات الطبية والهندسية ، لسبب واحد هو الاغراءات المالية التي تقدمها للخريجين وتضاءلت بذلك العناصر الاسلامية في الكليات الانسانية والتخصصات العسكريه . والنتيجة ان العناصر الاسلامية آل أمرها الى ان تعمل عناصر تنفيذ تبني السدود والمشاريع الزراعية وتداوي مرضى الخصوم . وتقدمت العناصر القومية والشيوعية الى مراكز القيادة السياسية والثقافية في مجتمعاتنا حتى ان الصحف الاسلامية تعاني عجزا كبيرا في المحررين ورجال الاعلام .

بعد نصف قرن من العمل الاسلامي أنتج رجالا صالحين ولكنهم محدودو الفعالية بل هم أعوان في ادارة الدواليب التي يعارضونها . ينجحون في عملهم المهني بقدر ما يفشلون في دعوتهم . وليست في هذا — أبدا — دعوة لشعارات فقدت دورها كشعار مفاصلة الجاهليه والهجرة والتكفير . وانما هذا تشخيص لواقعنا المؤلم . لقد فشل العقل المسلم في الحركة الاسلامية في فهم واقعه والتخطيط له بسبب ما ران من غبار عصر الانحطاط ومخاوف الحاضر وبسبب ردود الافعال فانفصل بذلك عن

الواقع واستمر انفصـــال الدين عن الحياة في مجتمعاتنـــا وانفصال الدين عن السياسة والتأثير والمشاركة فيتوجيهها رغم ان الحركة الاسلامية بدأت رفض الفصل بين الدين والدولة . باختصار لا مناص للعمـــل الاسلامي من تنظير لاستراتيجية تخرج بالحركة والامة من الدوامة وتستجيب للتحديات الكبرى التي تواجه المنطقة . أكتفي هنا في هذه العجالة بتقديم مبادىء ضرورية فيوضع هذهالاستراتيجية، هي مجرد توصيات وليست خطة ، هي مجرد معطيات لا بد من توفرها ووضعها في الحساب .

مبادىء أساسية
في استراتيجية العمل الاسلامي

أولا : لا بد من تحديد موقفنا من التراث، ماذا نأخذ منه وماذا نترك ؟ ما هو ملزم لنا وما هو غير ملزم ؟ ما هي القيم الايجابية الباقية من تراثنا لنحتفظ بها ؟ وما هي القيم السلبية ؟ بعيدا عن موقفي التقديس والاحتقار .

ثانيا : لا بد من تحديد موقفنا من الغرب . هل هو سلسلة من الاخطاء والاباطيل والارتباكات ــ كما يجتهد الاسلاميون في تصويره وانه بين قاب قوسين أو أدنى من الانهيار ــ وكأنهم يريدون أن يبشرونا بوراثتنا له ، مع أنه حتى وان سقط الغرب فانه ليس بالضرورة أن نكون نحن الوارثين لانه يرث الارض أصلح من فيها . فهل نحن أصلح من فيها الآن ؟ واذا كان الغرب سلسلة من الاخطاء فكيف استطاع ان يفرض هيمنته قرونا طويلة على العالم ؟ هل يرتفع على الباطل بنيان ؟ كلا ! وهل الغرب مقابل ذلك المثل الاعلى للمدنية ؟ هل هو النموذج الصالح للتطبيق في

ل زمان ومكان مهما اختلفت الظروف ؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا نترك ؟ هل نستفيد مما أنتج الاسلاميون على امتداد تاريخهم مع رفض كل بنيه وتنظيماته ومؤسساته ؟ وحتى لو كان هذا ممكنا نظريا ــ قالوا : وممكن عمليا ــ هل هو صالح لنا ؟ أليس في تنظيمات الغرب الادارية والسياسية وعلومه الاجتماعية ما يمكن أن نحرره من اطاره المادي ونضمه في سياق حضاري اسلامي كما فعل أسلافنا مع كثير من المعابد الفارسية والرومانية التي هدموها ولكنهم سكبوا أحجارها في بناءات أخرى بعضها مساجد لا نزال نستظل بها حتى الآن .

ثالثا : تحديد نظرتنا الى واقعنا بعيدا عن فكرة مسبقة . هو جاهلي أم هو اسلامي ؟ والسلطة التي تحكمه كذلك وفئاته وتجمعاته السياسية والدينية ، تتعاون معها أم نفاصلها ؟ ما هو الحد الادنى الذي يمكننا أن نلتقي فيه مع كل التجمعات الدينية والسياسية ؟

رابعا : ما هي ادارة التغيير ؟ القوة والاكراه أم الحرية والاقناع ؟ هل نؤيد الانقلابيين في العالم الاسلامي أم نعتبرهم غاصبين انتهازيين ؟ هل نمد اليهم أيدينا اذا ما فعلوا ذلك أم نعتبر أن شر ما تبتلى به أمة على الاطلاق النظام العسكري . وان الانقلابي ــ كل انقلابي ــ رجل مغرور يقفز الى السلطة في حالة غفلة من الوعي من الشعب

مبادىء أساسية
في استراتيجية العمل الاسلامي

أولا : لا بد من تحديد موقفنا من التراث، ماذا تأخذ منه وماذا تترك ؟ ما هو ملزم لنا وما هو غير ملزم ؟ ما هي القيم الايجابية الباقية من تراثنا لنحتفظ بها ؟ وما هي القيم السلبية ؟ بعيدا عن موقفي التقديس والاحتقار .

ثانيا : لا بد من تحديد موقفنا من الغرب . هل هو سلسلة من الاخطاء والاباطيل والارتباكات ـ كما يجتهد الاسلاميون في تصويره وانه بين قاب قوسين أو أدنى من الانهيار ـ وكأنهم يريدون أن يبشرونا بوراثتنا له ، مع أنه حتى وان سقط الغرب فانه ليس بالضرورة أن نكون نحن الوارثين لانه يرث الارض أصلح من فيها . فهل نحن أصلح من فيها الآن ؟ واذا كان الغرب سلسلة من الاخطاء فكيف استطاع ان يفرض هيمنته قرونا طويلة على العالم ؟ هل يرتفع على الباطل بنيان ؟ كلا ! وهل الغرب مقابل ذلك المثل الاعلى للمدنية ؟ هل هو النموذج الصالح للتطبيق في

ل زمان ومكان مهما اختلفت الظروف ؟ ماذا نأخذ من
الغرب وماذا نترك ؟ هل نستفيد مما ألح الاسلاميون على
الحضارة تقنياته مع رفض كل فيه وتنظيماته ومؤسساته ؟
وحتى لو كان هذا ممكنا نظريا ـ قالوا : وممكن عمليا ـ
هل هو صالح لنا ؟ أليس في تنظيمات الغرب الادارية
والسياسية وعلومه الاجتماعية ما يمكن أن نحرره من اطاره
المادي ونضعه في سياق حضاري اسلامي كما فعل أسلافنا
مع كثير من المعابد الفارسية والرومانية التي هدموها
ولكنهم سكبوا أحجارها في بناءات أخرى بعضها مساجد
لا نزال نستظل بها حتى الآن •

ثالثا : تحديد نظرتنا الى واقعنا بعيدا عن فكرة
مسبقة • هو جاهلي أم هو اسلامي ؟ والسلطة التي تحكمه
كذلك وفئاته وتجمعاته السياسية والدينية : نتعاون معها
أم نقاصلها ؟ ما هو الحد الادنى الذي يمكننا أن نلتقي فيه
مع كل التجمعات الدينية والسياسية ؟

رابعا : ما هي ادارة التغيير ؟ القوة والاكراه أم الحرية
والاقناع ؟ هل نؤيد الانقلابيين في العالم الاسلامي أم
نعتبرهم غاصبين انتهازيين ؟ هل نمد اليهم أيدينا اذا ما
فعلوا ذلك أم نعتبر أن شر ما تبتلى به أمة على الاطلاق
النظام العسكري • وان الانقلابي ـ كل انقلابي ـ رجل
مغرور يقفز الى السلطة في حالة غفلة من الوعي من الشعب

فيستبد بالامر دون الناس جميعا ، ويحيط نفسه بكل منافق لئيم . يصفقون له حتى يخيل اليه أنه أتى بما لم يأت به الاوائل وأن الدهر لم يجد بمثله ، ويعتبر نفسه الزعيم المنقذ ، بل حكيما من الحكماء . بل حكم بين الحكماء . أم نعتبر أن الشعب بعد الله هو السلطة العليا في المجتمع فلا حق لاحد في أن يكون وصيا عليه لانه ليس طفلا ولا سفيها بل هو خليفة الله في أرضه مصرين على أن الجهاد من أجل الحرية هو جهاد من أجل الاسلام . وأن من حق كل التجمعات السياسية أن تتكتل لاستعادةالحرية المغتصبة . المؤودة في العالمالاسلامي ؟ اننا ينبغي أن نرفض الديكتاتورية في كل أشكالها ولو مارسها مسلم يدعي أنه يريد أن يحمل الناس على الاسلام . اذ قد أباها الله حتى على أنبيائه : فكيف نجيزها نحن للعسكر المغرورين ؟ « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

فاذا تحقق لنا نظام يعترف بالحريات العامة فينبغي على الحركة الاسلامية أن تمارس حقها كطرف سياسي معترفة بغيرها من الاطراف السياسية الاخرى مقدمة اختياراتها النموذج الاجتماعي الذي تريد . فتخوض المعارك الانتخابية وتضع مواطن أقدام لها في البرلمان ومؤسسات المجتمع كالبلديات وتشارك في الحكم ولو جزئيا لتدريب أفرادها على ادارة المؤسسات وعلى قيادة الجماهير وتعبئتها

وتوعيتها بأهداف الحركة الاسلامية ، اذ المجتمع الاسلامي لم ينزل من السماء مكتملا ولا سقط في يوم انما بني حجرا حجرا وسقط حجرا حجرا . هكذا اعادة البناء ، وفي هذه الحالة اذ تعترف الحركة الاسلامية بالشرعية القانونية للدولة على اعتبار انها مختارة من الشعب فانها ما دامت هذه الدولة لا تحكم بالاسلام لا تعترف لها بالشرعية الدينية حتى يكون الدين هو قاعدة المجتمع والتشريع وهنا ينبغي الحذر من ان يظن الشعب أن السلطة غدت اسلامية لمجرد مشاركة بعض الاسلاميين في أجهزتها ، اما اذا كانت السلطة تستظل بارادة الشعب فالحركة ـ في رأيي ـ لا ينبغي أن تترك أي لبس في ذهن الشعب من هذه السلطة لا هي اسلامية ولا هي قانونية ما دامت لا تسمح للشعب في التعبير عن ارادته وحريته في التجمع ، وعندئذ فليس امام الحركة الاسلامية الا الثورة الشعبية التي تنتهي بتكتيل الشعب صفا واحدا في وجه السلطة الجائرة كما حدث في ايران او الثورة المسلحة التي تدفع الشعب لحمل السلاح في وجه السلطة الجائرة كما حدث في أفغانستان ولعله بدأ يحدث في سوريا ، فهناك اذن ثلاث طرق واضحة للوصول الى الحكم كلها الشعب أداتها : الحل الديمقراطي ، الثورة الشعبية والثورة المسلحة ، وحل آخر أداته العسكر لا أحسب انه ينسجم مع قيم الاسلام الذي اعتبر الجهاد من أجل الحرية على رأس أهداف جهاده الدائم ،

خامسا : الدعوة للاسلام من خلال حاجات الناس وهمومهم . وأهم هذه الحاجات والمطامح التحرر من كل تبعية للاستعمار بكل أشكاله والتحرر من الانظمة الاستبدادية في الداخل وتحقيق العدالة الاجتماعية . ويجب ان نربط ربط اقتران بين الاسلام وحاجات شعوبنا حتى تستيقن هذه الشعوب ان نضالها من أجل الاسلام هو نضال من أجل آمالها ومطامحها . ذلك ان الحركة لا تنتشر في مجتمع الا اذا جسدت آماله . وان الحركة الاسلامية حين حالفها النجاح بسبب تصديها لاعداء الامة. وانما تزحزحت عن مركز القيادة في أوقات أخرى بسبب موقفها غير الواضح من الهموم الكبرى للامة وصراعها مع السلطان الجائر . ولقد آن للحركة الاسلامية أن تغادر مواطن الحذر والتردد وتلتحم بمصير الشعب وقضاياه معتمدة على ربها ثم على رصيدها الشعبي .

سادسا : التربية المتكاملة على المستوى الفكري : تنمية الروح النقدية والموضوعية في الحكم ومحبة الحق والاذعان له حتى يكون الولاء للفكرة لا للشخص ومحبة العلم وتوقير العلماء دون تعصب وتبني الخطأ في أحدهم فكل ابن آدم خطأ والحكمة ضالة المؤمن ، فتتحرر بذلك من العقلية المانوية التي تعتبر ان الاشياء اما خير مطلق واما شر مطلق . وعلى مستوى التربية الروحية :

يوثق صلات الفرد بربه وتفكره في لقائه والاستعداد ليوم المعاد وهي من أوجب واجبات الحركة الاسلامية في عصر طغت فيه المادية واستفحلت الشهوات مما جعل بناءنا الحركي مهما سمى على جرف هاو . فلا مناص من اعتبار التقوى أسمى قيم الاسلام والميزان الاول الذي يوزن به الافراد مهما كانت صفتهم وبذلك تقلل من امكانية الانحراف ويرتفع مستوى تضحية الافراد بأموالهم وأوقاتهم وأرواحهم وتغدو الشهادة أسمى أماني المسلم وتجنب الافراد الامراض النفسية كالكبر والغرور والنفاق وحب الظهور والرياء والجدل ، ولكم فتكت هذه الامراض بجسم الحركة .

سابعا : ومن هذه المبادىء العالمية في الحركةالاسلامية تحقيقا لمبدأ التوحيد وهو أساس العقائد الاسلاميةوارضاء للرب ، فضلا عن ان العالمية هي روح العصر بدلا عن فكرة القومية والوطنية ــ التي سادت في القرن التاسع عشر في اوربا ــ مما يجعل الداعين الى الاسلام ليسوا علىانسجام لا مع دينهم ولا مع عصرهم . والعالمية في العمل الاسلامي ليست البديل للوطنية فانما هي معنى يضاف اليها ويكملها ويثريها . ان العمل الاسلامي العالمي رمز لوحدة الامة وهو تعويض للخلافة وقتيا وهو اطار لتبادل التجارب والخبرات ورسم للسياسات الاسلامية الكبرى دون مس بالتجارب

المحاية فاهل مكة أدرى بشعابها . ولماذا يكون لليهودي وكالة يهودية عالمية ويكون للمسيحي المجمع الكنائسي العالمي وللشيوعية المؤتمر الشيوعي العالمي وللاوربيين البرلمان الاوربي والسوق الاوربية المشتركة وللعرب الجامعة العربية ولا يكون للعاملين للاسلام مؤسسة عالمية الا ان نكون متخلفين عن ديننا وعصرنا .

ثامنا : اعتماد التخطيط وهو روح العصر والكم مبدأ أساسي في التخطيط وكثير ما يُهمَّش طريقة القياس الكمي وتلغى برفع شعار : المهم الكيف لا الكم . مع ان احدى أهم خصائص عصرنا ـ خصائص العلم الحديث ـ تحويل الكيف الى كم ، الى مقدار قابل للقياس . والقرآن يعتبر الكم مبدأ أساسيا في بنية الكون « وكل شيء عنده بمقدار » وحيث لا وجود للقياس الكمي تغدو عملية تقييم عملنا ومحاسبة أنفسنا شبه مستحيلة ولا ينبغي أن ينسينا التخطيط أبدا انه بغير مدد من الله يأتينا وتثبيت منه وتوفيق فلن نكون شيئا .

ومما يجب مراعاته في التخطيط في تجاوز التحديات ايجاد مجالات لتفريغ طاقات الشباب الذين تتلاءم الحركة بالحماس ، لانه اذ لم توجد هذه المجالات تعرضت الحركة لكثير من الانحرافات وليست ظاهرة التكفير والهجرة الا نتيجة لعمل اسلامي لم يوجد مجالات للتغيير في المجتمع

كالنهر المتدفق الذي ينساب في جوانب مختلفة اذا لم يشق طريقه أمامه .

ومن هذه العوامل اعتبار عامل الزمن أساسا فيحركتنا فلا بد للحركة أن تطور نفسها باستمرار . ومنها أيضا الواقعية : ونعني بها تقدير امكانياتنا وامكانيات خصومنا والتخلص من وسواس التآمر الذي تصاب به الحركة الاسلامة فتتخيل ان العالم كله يتآمر عليها يحسبون كل صيحة عليهم . صحيح ان العالم يكرهنا ولكن السياسات لا تبنى على المبادىء فقط ، وانما تبنى على المصالح وليس من المستحيل أن تلتقي مصالحنا في خطوة في الطريق حتى مع مصالح أعدائنا .

أن نعيد للجماهير الوعي والسلطة وان نخطط لكل طاقات المسلمين وان اختلفوا معنا في الرأي . ضرورة التسلح بالجرأة والشجاعة للدخول على العالم الحديث ومؤسساته كالتمثيل والسينما لنحررها بدل الهروب منها وربنا يقول « ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون » .

ان التحدي الخطير أيها الاخوة هو : هل نستطيع أن نعيش في العالم الحديث محافظين على اسلامنا ؟ لقد بذلت الحركة الاسلامية جهدا كبيرا في اقناع الامة بالتوافق بين دينها والعلم الحديث ونجحت في ذلك الى حد كبير . لقد

استطاعت في عالم ملوث ان تربي شبابا طاهرين . لقد استطاعت الى حد كبير ان تقضي على شعار الفصل بين الدين والدولة ولكن التحدي الخطير كيف تستطيع ان نروض عصرنا ؟ ان نصب ونذيب ثقافة العصر في كل اطار الاسلام فيرى الناس الاسلام مجسدا في نظريات وتطبيقات في الاقتصاد والفن والمسرح ويعبر الاسلام عن نفسه ازاء العالم لا بالرد فقط بل بتقديم البديل وبذلك ينتقل الاسلام من كونه دينا لفرد أو فئة الى كونه حضارة شعب وأمة وطريقها الوحيد الى العزة والعدالة والحرية ولقد استطاعت الحركة الاسلامية ان توجد رأيا عاما مواليا للاسلام ولكن هل تستطيع الحركة الاسلامية ان تقود هذه الجماهير وتتبنى قضاياها وتحول بين جمعيات بدأت تتكون يمكن أن نسميها جمعيات المستفيدين من الاسلام ، أولئك الذين أخذوا دون سابق عهد وكانوا بالامس في صف العدو أخذوا يرفعون الشعارات الاسلامية كالاخذ بالتشريعات الاسلامية وتطبيق الاسلام . هذا تحد آخر وهو محاولة من القوة المضادة لتوجيه النصر الكبير الذي أوجدته الحركة الاسلامية توجيهه الى مسارات خاطئة ثم تضييعه في الطريق .

خاتمة

ولا يفوتني في الاخير أيها الاخوه الكرام ان اعتذر عن تقصيري في الاحاطة بهذا الموضوع فهو أكبر من ان يتناوله مبتدىء مثلي . ولكن اذ كنت نبهت عن أهميته فقد بلغت ما أريد . وكثير من المسائل التي ذكرتها هي من قبيل تحصيل الحاصل بالنسبة للحركة الاسلامية في السودان التي نعقد عليها آمالا كبيرة بالنسبة لهذه المنطقة خاصة في أن تكون المضغة التي ينطلق من صلاحها صلاح الجسم كله . ويؤيد ذلك ما يراه مالك بن نبي من ان جانبا كبيرا من الشعوب الاسلامية قد دخل الحضارة ثم خرج . ومن الصعب أن يعاد شعب الى الحضارة بعد أن خرج . وان المجتمع السوداني لا يزال مجتمعا بكرا . اما الحركة الاسلامية في السودان فلها من تجاربها وموقعها بالنسبة لافريقيا وآسيا وتاريخها الجهادي الطويل ووعي أفرادها وقادتها ما يرشحها — اذا أحسنت التعامل مع جيرانها — لان تكون أول استجابة ناجحة للتحديات الكبرى المطروحة

في المنطقة . لقد أبحرت سفينتكم أيها الاخوة فلا يلتفت منكم أحد الى دنيا يصيبها أو شهوة يشبعها وأمضوا حيث تؤمرون الى جهاد متواصل ، الى جنة عرضها السموات والارض وأخرى تحبونهـا نصر من الله وفتـح قريب .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجزء الثاني

بقلم الدكتور

حسن عبدالله الترابي

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

ابدأ بحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على المرسلين ثم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فاني زمان الحسي يتاح لي أن أخاطبكم في كل حين . وددت لو انى انزويت من هذا المسرح لاتركه لاخوانى القادمين من البلاد العربية الشقيقة . والفضل الكبير لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم ان اتاح لنا هذا المعرض البشري وهذه المواهب الكريمة لنتصل بالشعب ؛ فانا لا نكاد نعهد من الاخوان العرب الا الاشباح الدبلوماسية التي تؤثر الظلام وحفلات الكوكتيل على المنابر الشعبية والاتصال المباشر بالناس . ولا أريد أن أطيل الكلام وقد طال بكم المقام ولكنى أريد أن أطرح رؤوس مسائل حول التحديث والتجديد والحركة الاسلامية .

الدين الثابت والتدين المتطور

ومن أول بداءة الدين التي يعرفها أهله وأولياؤه معنى الثبات : لان الدين مرجعه الى الله الازلي الذي لا يحول . ولان أصل الدين هو الوحي المعصوم الذي لا ينسخ . ولكن ما لا يعهده الناس في أمر دينهم هو المعنى الآخر الذي يزاوج الثبات ويجاريه . الا وهو التطور والتجديد . وفي هذا تذكرة لاولياء الدين الذين يغفلون الا عن معنى الثبات والاستقرار في الدين ولاعداء الدين الذين يتوهمون في الدين طبيعة جمود ورجعية . والحق أن ظواهر الجمود والرجعية انما تطرأ على الحادثات وكسب البشر ولا تطرأ على جوهر الدين ، فهي تغشى صور التدين أو مواقف الناس من الدين . ويفيد هؤلاء وأولئك أن يلاحظوا أن الله — سبحانه وتعالى — قد أسس الحياة كلها على معنى الزوجية وهكذا جعل أمر الدين دائرا بين الثبات والتطور . فلئن كان في الدين أصل ثابت فان من الامراض التي تلازم التدين الجنوح المجمود ؛ ومن

المعالجات التي يستدعيها التدين التجديد بعد التقليد والبعث بعد الجمود •

فالوجود الكوني كله حادثات تزول وتحول، والتدين هو محاولة لعبادة الله من خلال التفاعل مع تلك الحادثات، فلا بد للمتدين اذن حتى يثبت مع المعنى الديني الازلي ــ معنى عبادة الله ــ أن ينقلب مع هذه الحادثات • وان يتطور حتى يضمن دائما استقامة على القبلة والوجهة الى الله ــ سبحانه وتعالى ــ ليكون على صراط مستقيم مهما تقلبت به ظروف الدهر وأحواله • أما اذا ثبت المرء على حالة واحدة من التدين فان الدهر ــ بتقلبه ــ سيجرفه او يقطعه عن وجه الله ــ سبحانه وتعالى ــ من حيث يحسب هو ويتوهم أنه ثابت على التوجه القديم • وذلك هو مغزى الطبيعة الابتلائية في الحياة الدنيا • فالله قد شاء أن يبتلينا بالتفاعل مع الكون ، وقد كان لله ــ لو شاء ــ أن يبقينا في مسرح الجنة نعبده على وجه واحد مطلق ولكنه أنزلنا الى الارض وحياتها الدنيا وابتلانا بمختلف صروفها وظروفها • يمتحننا أحيانا على الصعيد الاجتماعي بالرخاء ، ولكنه لا يديم علينا رخاءه وانما يسلمنا الى الشدة أحيانا أخرى لينظر كيف نعمل في كل حال « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » • ويمتحننا الله على الصعيد الحضاري بتحد يرد علينا من الخارج عدوانا وغزوا ؛ كما يمتحننا بتحد يقع علينا من

الداخل مرضا وانحذالا فى وحدنا أو نمضتنا . وعلى اي صعيد من الحياة ناما أطوار التاريخ رأيناها جميعا أقدار ابتلاء يسلطها الله ويديرها عليما ولا بد أن تتعب معها وتتطور حتى نفسمن فى كل طور وفي كل دور أن تستقيم على معنى العبادة الثابت الذي يقربنا الى الله زلفى . ولكن المرء اذا جمد بكسبه وركن الى حادثات الكون من الحياة ستحتويه وتطوح به فيغدو عبدا مسخرا دائرا مع ظروف الكون محجوبا عن رسالته الانسانية فى تسخير الكون نحو عبادة الله .

هذا هو معنى التزاوج والتجاوب اللازم بين المطلق والنسبى أو بين الثابت والمتطور في الدين . وهو معنى لا بد أن يعيه كل متدين طوال حياته . ولربما يحسب المؤمن ـ حين يخوض ابتلاء عظيما بتوفيق الله ـ أن له بعد ذلك أن يرتاح ولكن الانتصار على الابتلاء ـ بذاته ـ يتحول الى ابتلاء جديد يعرض المؤمن للغرور والقعود لا أن يستمر وعيه بوجه الابتلاء المتجدد ويضطرد كسبه فى الكدح والمكابدة ولذلك تأتى الآيات لتخاطب المؤمنين بأن يؤمنوا « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » يقول المرء : أما وقد آمنت ماذا يبقى لى الا أن أثبت على ايمانـي ؟ كلا ! لا يكفيه ذلك ولا يشفعه فالآية تدعوه ان يحقق الايمان حينا بعد حين وطورا بعد طور . وقد يبلغ المرء طورا بعيدا من

التقوى ولكن الدين يدعوه الى أن يتقي الله ثم يتقيه « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » . « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين » . هكذا يتقلبون في التقوى حينا بعد حين ويغفر الله لهم ويرضى عنهم كل حين . وقد يحلو لاخواننا الصوفية أن يحسبوا ذلك كله مراتب ومقامات في الترقي . ولكن فيها ما هو مراق في المعراج الى الله وما هو مراحل في الطريق اليه تعالى اذ هي تفاعلات مع ظروف الدهر فاذا استطاع المؤمن في كل هذه الجولات التي تدور عليه أن يثبت في كل مجال فانه قمين باضطراد كسبه الثابت وتدينه المستمر تجاه التحديات المختلفة أن يترقى مرتبة بعد مرتبة ويتقرب الى الله — سبحانه وتعالى — زلفى ، وقد يكون حظ المرء من حياته دورات يوفق ثم يخيب ويتقدم ثم ينتكس أو قد يكون حظه كالفلك السائر مهما علت به أو هبطت موجات الحياة فهو سائر قدما الى الله — سبحانه وتعالى — زلفى .

عبرة في تتابع
الرسالات السماوية

وهكذا كانت حركة الدين في التاريخ ، شاء الله ان يبعث رسولا ليحقق ذلك المعنى في كل بيئة معينة . فمنهم ــ مثلا ــ رسول كشعيب ــ عليه السلام ــ قام بأمر الدين من خلال التفاعل مع مجتمع أشرك بالله فجرّه ذلك الى صور من الظلم الاقتصادي وأكل أموال الناس وخسران الميزان ولكن شعيب فيما تصدى لتلك الظواهر الاقتصادية انما أراد أن يحقق ما يقتضيه شرعا أصل الاعتقاد الديني الثابت وهو معنى التعبد لله ــ سبحانه وتعالى ــ وتوحيده من بعد أن أشرك به الناس الهوى وابتغوا عن مرضاته عاجل المتاع الاقتصادي .

وجاء رسول من بعد شعيب يدعو الى ذات الوحدانية الحقة من خلال مجاهدة الشرك السياسي الذي تجلى في نظام الحكم المصري حيث انتصب فرعون يتأله على الناس بسلطان مطلق ولا يعترف في الحاكميـــة بسواه . وكان موسى ــ عليه السلام ــ من خلال مكافحة الطاغــوت السياسي يدعو الى تحقيق ذات المعنى الذي تحراه كفاح شعيب ضد صورة أخرى من الباطل .

فالقيم الثابتة فيرسالات الانبياء واحدة ــ مهما تبدلت الشرائع أو تجددت ــ تمثل التعبير الامثل عن تلك القيم عبر الاوضاع والظروف المتجددة . ذلك أن الشرائع هي أشكال الاستجابة المؤسسة على دين التوحيد في وجـه التحديـات تختلف في كل فتستتبع اختلافـا في شكـل الاستجابة بما يناسب التحقيــق الواقعي للدين في البيئة المعينة .

وحين قدر الله في مرحلة من تاريخ البشرية أن يبعث نبيا برسالة خاتمة هو محمد بن عبد الله (ص) لم يعن ذلك أن صورة التدين ستطبع بخاتم الجمود بل جاءت شريعته ــ وهي دليل التدين الاسلامي ــ تحمل قابلية التجديد في طبيعتها ونصها وأوصى رسولها علماء الامة أن يكونوا لها

كما كان أنبياء بني اسرائيل للشريعة الموسوية يجددون من صورها مرة بعد مرة حتى لا ينقطع المسير الى الله بتحول الاوضاع والظروف المادية بعد عهد التنزيل •

وكذلك نبه رسول الله (ص) أصحابه بأن معطيات التدين وأطره الظرفية تتحول وذلك حين سأله صاحبه حذيفة فحدثه أن أمر الدين لم يسكن أو يستقر على حال وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقلّب الابتلاء على العباد ليستنبط الايمان ويمحّصه في صالحهم ويحقق القول على طالحهم فاذا اكتشف الناس وجه العبادة في ظروف الخير قلّب عليهم طوارىء شر ليبلوهم بوجه آخر من التدين • وهكذا ينبيء الرسول الكريم صاحبه بأن الخير العميم الذي بسطه ظهور الاسلام الاول لن يدوم بكل صوره بل سيعقبه شر ينتهي الى خير آخر لا يضاهي الخير الاول لانه فيه دخنا ثم تدور الدورة المتداركة لتؤدي الى شر متفاقم • وعلى المؤمن أن يرتب موقفا مناسبا من كل طور يواقيه • وما تستلزمه ظروف الخير المحض من موقف غير ما تقتضيه ظروف الخير الذي فيه دخن والموقف من الشر الاول قد لا ينجي ازاء الفتن التي يجلبها الشر الآخر • ويحدثنا رسول الله (ص) ويبشرنا بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقيّض لهذه الامة كلما بلي دينها وكلما سكنت

الى صورة من صور التدين ـ تدين الوجـدان أو تدين الفكر أو تدين العمل فدهمتها تحديات جديده ـ يقيّض لها قيادة جديدة تجدد أمر دينها باحياء الوجدان المؤمن او تنشيط الاجتهاد الفقهي أو اثارة النهضـة المادية .

حركة التدين
تلاحق أقدار الله المتقلبة

فالبلى والتجديد أو الجمود والنشاط دورة ملازمة لحركة التدين عبر التاريخ وأقدار تطورها التي يقلبها الله فهي اذن حركة دائبة تلاحق الحياة ولا يسكن نشاط التدين الا تجاوزته الحياة وظهرت ثغرة بين مستوى كسب المتدينين ومقتضى تكاليف الدين الحق لا يستدركها الا كسب جديد من الاجتهاد والجهاد يرقى بما انحط من التدين ويبلغ به ما يوافي التكاليف المتطورة ويستجيب لتحديات الابتلاء التي تطرحها الحياة الحادثة. واذا قررنا ان حقائق الدين الجوهرية أزلية لا تزول جاز لنا من بعد أن نقدر أن كل وجه من وجوه التدين قابل للتطور وصائر اليه تبعا لمصائر الحادثات من حركة الحياة . فالاسلام ــ وهو أشكال الحياة التي يصوغ فيها المسلم معنى اسلام الوجه لله والاعتقاد . هو الوجوه

التي يقبل بها المؤمن على ربه متخذا من مادة حياته ما يحقق به نحو الله التوحيد والحب والشكر والرجاء والخوف ـ كل ذلك يتجدد من حيث تجدد أساليب تفاعل العقيدة مع الواقع المتجدد الذي ينصب للمؤمن كل حين عرضا يكاد يوقعه في صورة اشراك غير التي تجاوزها أمس بتوحيده أو فتنة توشك أن تورطه في معصية غير تلك التي اجتنبها قبل بطاعته فهو كل يوم بل كل لحظة في شأن جديد من الالتزام بالعقيدة والاعتصام بالشريعة • واذا لاحظنا كسب مجتمع مؤمن حي الايمان من ذلك التجدد تجلت لنا أطوار متميزة في أنماط التدين عبر تاريخ الواقع الاجتماعي الديني • واذا نظرنا الى تراث الاجيال المؤمنة من فقه العقيدة أو الشريعة أدركنا حاجة كل جيل وواجبه في الوفاء بما يحق عليه من ذلك في اطار واقعه الظرفي المعين لا يغني كسب موروث عن كسب جديد ولا يفدي جيل جيلا من المسئولية ولكل أمة خلت ما كسبت لنفسها وعليهـا ما اكتسبت وليس لها الا ذلك ولا تسأل الا عنه • وكل التدين مكلف به ومسئول عنه أصالة لا وكالة ولا يورث كما يورث المال ، على كل حظه المعين من التكاليف العامة وكسبه من التدين ونصيبه من المسئولية المنوطة به يوم الحساب اذ التدين موقف عيني مؤسس على بيعة مخصوصة ومفض الى حساب مخصوص• ولا يجدي الواحد من المسلمين فيما يليه من التدين الخاص

دون الجماعة ولا الجيل منهم فما سيهم من تدين معاصر دون سلفهم أو خلفهم أن يعوض على تدين غيره •

والتفقه في الدين اجتهادا والعمل في الدين جهادا وجهاد من التدين على كل فرد أو قرن من المسلمين فيهما تكليفه ومسئوليته المعينة وليس له فيهما الا ما سعى • فكلما تجدد القرن بظروف وواقع طريف لزم أن يتجدد الفقه والاجتهاد فيتطور العلم باضافة جديدة وتحرر الكتب ازاء المتراث المدون • ذلك ان الاقضية الجديدة تحدث كل يوم : تتولد في ثنايا الحياة وحركتها المتطورة وأسبابها وعلاقاتها وحاجاتها وأوضاعها المادية المتقلبة كذلك السعي العملي في الدين يلزم أن يتجدد مع تقدم الزمان جهادا بعد جهاد ويتعاقب ازاء الظواهر الكونية التي تتعاقب علينا كل حين تطرح تحديات متجددة تستلزم وجوها جديدة من المكابدة في عمل المفروضات ومقاومة المنكرات وازاء أعداء الدين الذين يتعاقبون على أجيال المسلمين بوجوه متجددة ويتصدون لهم بطرائف من المجادلة والمقاتلة لا تتناهى صورها حتى يرث الله الارض ومن عليها ويطوي بساط الابتلاء •

التاريخ الحضاري الاسلامي
بين التقليد والتجديد

وتاريخ الاسلام من ثم سجل لهذه الحركة الدائبة من التدين . ولا قوام لاسلام بغير حركة تدين نشطة تحققه من مادة حركة الحياة فاذا جمدت حركة المسلمين ـ من حيث هم مسلمون ـ جمد اسلامهم وتشكل تاريخ حياتهم بطبيعة غير اسلاميـة . واذا كان التجديد معنى ملازما للحركـة والحركة معنى ملازما للاسلام فان التجديد من ألزم مقتضيات دين الاسلام . واذا تساءلنا عن مدى وفاء تاريخ المسلمين لشروط الصفة الواجبة فيه وهو أن يكون تاريخا اسلامياً ومن ثم سجلا لكسب متجـدد من التدين يواكب تطـور ظروف الزمن ، واذا سألنـا عن كسبنا من واجب تجديـد التدين وجدنا الاجيال الاولى من المسلمين قد نهضت بذلك الواجب ووفته حقه ثم خلفت خلوف ركنت الى السكون

والجمود الا قليلا وأورثتنا نمطا من التدين سكوني جامد يفرّط في تسخير الظروف المتجددة لعبادة الله واسلامها لوجهه وتتضاءل بذلك الطبيعة الدينية الحقة في حياتنا شيئا فشيئا اذ تتحرك الحياة بوجوه الفتنة والابتلاء ولا تواكبها وجوه تدين تفي بها وتتصدى لتحدياتها فتغلب علينا العناصر غير الاسلامية في اتجاهات حياتنا وينتهي تديننا الى بقية من أصول الدين المحدودة المحاصرة .

ضعف العقيدة

وجمود الفكر الاسلامي

واذا كان الشأن في الاسلام أن يعمر الحياة بمعانيه ويغمرها بصوره وألا ينفك كذلك مواكبا لتطورها الموصول فقد أصبح نصيبنا من الاسلام تدين تقليدي متأخر عن تقدم حركة الحياة في الاعتقاد والفكر والعمل . فقد نضبت في مواقفنا العقدية معاني التوكل والاقدام التي تدعو لاقتحام كل تحد جديد وتسخيره واتخاذه مادة لعبادة الله الواحد وأصبح غاية أمرنا أن نحفظ بقية الدين لا نزيده ونجدده . ومع حركة الانحطاط المضطرد التي لازمتنا دهرا طويلا أصبحنا نرى أرض الاسلام تنقص من أطرافها ومظاهره تتلاشى وخيره يتضاءل وتحيط به الشرور المقتحمة وكانت علة ذلك وعاقبته مواقف في العقيدة قنوعة غير طموحة تجنح

للمحافظة وتخاف من الشر فلا تقتحم المخاطرات بل تؤثر الفرار والنجاة ولا ترى في ارتياد المخاطر الا تهلكة ولا في الحركة الا ترديا الى الارذل. والفكر الاسلامي الذي انتجته هذه المواقف العقدية في عهود انحطاط فكر يدبر عن واقعه الحاضر ويتشبث بتراث الفكر الذي نشأ عن واقع سالف وذلك من فرط تعلقه بالماضي وارتيابه بالحاضر وخوفه من المستقبل . وحين يؤخذ فكر كان ثمرة تفاعل مع واقع معين مأخذا مطلقا وينقطع عن اطاره الواقعي يصبح تراثا مجردا تنسد طرق الاجتهاد فيه والتجديد . لان التفاعل مع الواقع الحي هو الذي يعرّض الفكر لتحديات الظروف المتجددة كل يوم ويستفزه الى أن يستجيب لها فيتجدد وينمو اضطرادا . وبغير هذه الصلة الحية تموت دواعي التجديد وعناصر الحركة والتوالد . وحينما ينزل ذلك الفكر عن تجريده فهو لا ينزل على واقع لينظر في ضوئه النظام العام للحياة الاسلامية بل يتركب ويتفرع بناء على الاحتمالات والافتراضات ويتكثف بالتفصيلات الشكلية التي يتم بها نظام ظاهري لنهج الاحكام لا يرتبط بالتدين العملي الذي يؤسس على المقاصد والبواعث الحية لا على الصور وحدها والظواهر .

وحين انقطع فكرنا عن الواقع ــ وهو مجال التدين

الحي ـ حرم من كل مدد يصله بأصول الحياة وغدا محفوظات نقلية منفصلة عن علوم الواقع الطبيعي والبشري التي تدركها الحواس ويعيها العقل • ولو كلفنا الله بحفظ العلم النقلي الشرعي الذي يحتوي الوحي المنزل من الله وسنة واقع الدين في عهد النبوة فقد كلفنا أيضا بالتماس العلم الوضعي الواقعي وأنذرنا أننا مسئولون عن كسب السمع والبصر والفؤاد • لكن الشقة قد تباعدت في تاريخ المسلمين بين هذين الشقين من العلوم الدينية والاسلامية وغدت كلمة العلم لا تكاد ترد الا لتدل على علم نقلي لا يكاد يكون للعقل فيه نصيب • أما العلم الذي نكتسبه حسا وعقلا من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ المبثوثة في صفحة الكون ـ بشره وأشيائه ـ فقد انفصل وتعطل • والشأن في شعبتي العلم أن يتحدا ويسخرا لعبادة الله • فاذا تباين العلمان لم يكن لاي منهما قوام وضل عن الوظائف التي يتوخاها فلا يتم فهم الوحي ولا تحقيق مقتضياته بغير علم حي عقلي و لايهتدي علم عقلي بدون علم الوحي •

وبانقطاع العلم التقيدي عن التفاعل الحي مع الواقع الطبيعي تلاشت طبيعته الدينية الاصولية : لان الدين هو التفاعل بأصول الدين مع ابتلاءات الحياة وظروفها : وحين ينحجب المسلمون عن حوافز الواقع وتحدياته تضعف

دواعي المودة للاصول المسعفة لمتطلب الهدى ومها يكن الترتيب الرسمي لاصول الفقه ـ الكتاب والسنة والاجتهاد ـ فان المعمول به حقيقة لدى المجتمعات الاسلامية التقليدية هو الرجوع أولا لاقوال اصحاب الحواشي والشروح من محرري الفقه ومدونيه ثم من خلال ذلك الى آراء أئمة الاجتهاد ولا يتجاوز ذلك الا قليل من العلماء في مواطن الخلاف لينظروا دليل كل رأي من السنة وقليلا من بعد ما يرجعون الى القرآن وفيه الاطار الحاكم للشريعة • وهكذا قلب الناس سلّم الاصول الاسلامية قلبا تاما وتباعدوا عن الاصول بسبب تباعدهم عن مشكلات الواقعية واستغنائهم بالنقول النظرية وبذلك أصبح فكرنا معلقا بين السماء والارض انبتّ عن منطلقاته في عالم الغيب وعن أهدافه في عالم الشهادة وانتهى بذلك الى الجمود البعيد •

انحطاط الواقع
وجمود الحياة الاسلامية

ومن جمود الفكر جمدت الحياة في كل مناحيها . فاذا كانت الاوضاع السياسية المثلى في الاسلام تقتضي الحركة الدائبة تآمرا بالمعروف وتناهيا عن المنكر وتناصحا وشورى وتعرضا للمشكلات الداعية للاختلاف والمغرية بالتفرق والفتنة ثم اعتصاما بالشورى والاجماع لاستعادة الوحدة والوفاق اذا كانت صورة النظام السياسي الاسلامي كذلك فان صورة النظام السياسي الذي ورثناه هي صورة شائهة لانها مركبة من عناصر السكون لا الحركة ــ عناصر الركون الى الواقع والقعود عن التبديل الاجتماعي نحو التي هي خير ، وعناصر الاستسلام الى تقليد الامام أو الحاكم أو السلطان .

واذا كانت ملة الاسلام لاول عهدها السني هي دعوة منفتحة تتحرك كل يوم لتتفاعل مع التحديات تجادل وتقاتل وتتعرض للابتلاء فيؤمن جانب من الناس ويزدادون بالصراع بين الحق والباطل كل يوم ايمانا ويكفر جانب ويشتطون كل يوم في الكفر ويتذبذب اخرون بأثر الفتنة فيؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون ثم يكفرون وغير هذه الحركات من نهضة ونكسة وتوبة تتركب حركة الاسلام المتقدمة الى الامام ، اذا كانت هذه الصورة المتحركة من الاسلام هي التي سنها الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقد ورثنا تدينا جامدا وملة قومها العصبة الموروثة غدا هو ابن المسلم مهما كانت عقيدته الباطنة أو سيرته الظاهرة لا يكاد يرى نفسه محتاجا لكسب طريف من التدين يحقق به اسلامه مجددا .

والجنوح الى السكون والى القعود عن التفاعل مع الكون والحياة ببواعث الدين هو علة تخلفنا الاقتصادي أيضا ، اذ ركنا الى أقدار الكون وركبتنا قوى الطبيعة التي أرادها الله تعالى مركبا لنا اليه وذلك بأن نسخرها ونجعل من تسخيرها مادة لعبادته ولكن قوى الطبيعة فتنة للقاعدين تطغي على صحة أجسادهم وبنيتهم بجراثيمها فيمرضون وتأبى أن تعطيهم عفوا من ثمراتها فيفقرون

وتحجم عنهم نور العلم بظلماتها وأسرارها فيجهلون وتأبى عليهم أسبابها فيعجزون • وهنا يكمن التحدي التكنولوجي الحديث •

ان مقتضى الدين هو أن تتحرك بذكاء وحكمة واتقان لنتخذ من مادة الطبيعة وسيلة لتحقيق أغراض الدين • وكان أولى بنا نحن المسلمين أن نشرع ثورة الاتصالات التكنولوجية الحديثة لان العقيدة توحي الينا والشريعة تأمرنا أن نتحد ونتواصل ونتآخى ونتعاون وكيف يصل المسلم أخاه في طرف الارض الاقصى اذا لم يمد الله سببا من الاتصال والمواصلات • وكان حريا بنا أن نحقق أمر الدين في اعداد القوة المستطاعة لمجابهة الكفر وأن يحفزنا الايمان في ذلك الى مستوى يترقى كل يوم من الصناعات الحربية بأعلى مما يتوافر لغير المؤمنين الذين لا يحفزهم الا حمية الحرب • وكان ينبغي علينا وقد أمرنا أن ننشر العلم ليكون كسبا شعبيا لا تتميز به خاصة دون عامة وأن نحصل ما لا يتأتى ذلك الا به من ثورة تطور نظم التعليم وأدواته وأساليبه الفنية وأن نبلغ في العلوم بكل أنواعها ما لا يبلغ سوانا •

واذا كنا نحمد الله على ما سخر لنا من الخيل والبغال والحمير وما كنا له مقرنين فمالنا لم نطمح الى المزيد من

الحمد والشكر ونسابق الى الجديد في تسخير طاقة الطبيعة في السائرة والطائرة والقاطرة لتتجدد لنا أوجه أعظم لشكر الله ، ومالنا لم ننهض لنقتبس من مادة الطبيعة مزيدا من النعم والطيبات ومن أفضال الله المشكورة التي تكون أسبابا للاجور ، لكننا بسوابقنا النفسية السالبة المحافظة نلتمس التدين في الخوف من الصناعة والحذر والتكنولوجيا لاننا لا نبصر وجوه التدين فيها ونغفل عن ان الجديد المتحدي انما هو فرصة مزيد ايمان للمؤمن القوي ولا يضر الا المؤمن الضعيف فلو تكاثر السكون في المزدحمات الحضرية أتيح للمؤمنين المتوكلين أن يضاعفوا افشاء السلام ويعمروا علاقات الجوار ويعقدوا أسبابا أوثق للتآخي والتعاون على الخير ، ذلك بينما يحن الضعاف الى البداوة التي جربوا فيها وجوه التدين ويخشون المدن وفتنتها ونكارتها وشرورها ،

من أسباب التدهور والانحطاط

«التدين الحق توكلي تقدمي يرحب بكل ابتلاء جديد ويستجيب له بوجه عبادة متجدد يقدمه الى الله زلفى وكان حريا بنا نحن المسلمين أن نسبق أوربا لذلك ولكن الغربيين سبقونا اليوم مدفوعين بأهوائهم في طلب المتاع الدنيوي، وذلك المتاع مهما أضعف من دافع العمل حبا لله ـ سبحانه وتعالى ـ وشكرا له ورجاء رحمته وخوفا من عذابه ، وتلك دوافع تحمل المرء عبر التمتع الى مثل عليا حتى يفني ذاته في سبيل الله ، ولو كانت هذه الدواعي حية في وجدان المؤمنين الحاضرين ولو كانت مطروحة منثورة في تراثنا الديني موصولة بأطرها الواقعية في مجال النهضة الاقتصادية والعلمية والسياسية لكان حاضرنا غير الذي تتشكي منه اليوم ولكان لنا أمر آخر في ابتلاءات التدين ألا وهو الحذر من فتنة الزينة والعلم والطغيان .

وقد مر بالمسلمين عهد أسعفتهم فيه تلك المعاني الحركية فاتسعوا بدينهم نحو كل جديد من أرض مفتوحة أو علم محصل أو ثروة مكتسبة • وتعاظم بذلك كسبهم من الدين ولكن ذلك التعاظم شكل ابتلاء جديدا استدعى وجوها جديدة من التدين وحركة بذات الاسلام في الاطار الظرفي الجديد • ولما لم يتوافر ذلك التجديد الموصول بدأت النكسة التي تداركت حتى ورثناها بالامس القريب • فقد اتسع المسلمون في الارض وبسطوا سلطانهم الى مدى شاسع لكنهم لم يوافوا ذلك بما تقتضيه من تطوير أسباب الوحدة الجامعة اذ انتشرت جماهير الاسلام في الاقاليم البعيدة وعجزت الشورى السارية من ان تحيط بهم فتعطلت اجراءاتها العفوية القديمة لان الظروف الجديدة كانت تستدعي تجديدا في طرائق الشورى لم يتح لمجتمع المسلمين •

من ثورة التجديد الحضاري
الى الثورة السياسية

ان لله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يكلفنا بأن نختار التحديات الجديدة ولكن يكلفنا بأن نختار الاستجابة لتلك التحديات وقد كانت سنة الله أن يقلّب على الناس الابتلاء . يبدأ الدين غريبا مغلوبا يستوجب عليهم غير ما يستوجب الامر حين يأنس ويعز وهكذا من حال لحال جديد . ومثال ذلك ما يروي القرآن من دورة الابتلاء لبني اسرائيل اذا أفسدوا في الارض فسلط الله عليهم بأسا شديدا . فلما تابوا تاب الله عليهم وبارك لهم في أبنائهم وأموالهم وجعل لهم الكرة . ولكن العد والمتاع والغلبة شكلت ابتلاء جديدا لم يحسنوا العمل ازاءه فأفسدوا من جديد فردّ الله عليهم الكرة مرة أخرى .

هذه الكرات والدورات التي تطرأ على تاريخ الملل ـ اذ يداول الله الايام بينهم ذلا وعزا ونكسة ونهضة ـ جرت على تاريخ المسلمين ووافينا نحن عهد انحطاط متطاول . وكان على المسلمين اذا طرقتهم طوارق الانتكاس ان يتبصروا مصائر واقعهم ليدركوا طبيعة التحدي والاقدار التاريخية التي تحيط بهم فيتفاعلوا معها بما تستدعيه من تدين فكري وعملي ومن تدبير وتخطيط ليحاشوا لكرات الابتلاء التي تترتب في سير التاريخ . وبذلك يصلحون تدينهم بعد كل انحراف ليضطرد مسعاهم وتتصل نهضتهم الحضارية .

اما وقد تراكمت آثار القصور الديني وورثنا اثقالا من التخلف فان أمرنا أعظم من أن نعالجه بالحركة المحدودة والاجراءات الجزئية بل تستدعي الامر نهضة كلية شاملة عاجلة هي أشبه بالثورة في أقدارها الحركية ومداها . ينبغي علينا أن ننهض بوجداننا المتدين لنربي فيه عقيدة المؤمن المتوكل الفعّال المقدام أن نتخذ لذلك كل وسائل التربية متحررين من الروح السلبية التي تسري الينا بما نقرأ في غالب كتبنا المتداولة وما نسمع من وصايا الآباء ومواعظ الخطباء التي لا تذكرنا الا بدواعي الحذر والسلامة والتورع .

وينبغي علينا لذلك أن ننهض بحملة فكرية جديدة لسد هذه الثغرة الواسعة التي نشأت وما انفكت تتعاظم منذ القرن السابع ولنقضي على الاعراف الراسخة من العصبية المذهبية والتقليدية الجامدة التي تمكنت منا جميعا والتي نلحظها حتى عند الذين أدركوا ضرورة التسامح وفتح باب الاجتهاد حتى اذا صدمهم رأي غريب صدر عن موقف اجتهادي جديد تراهم يذعرون من رأي لم يقل به أحد من قبل بل تراهم يتبرمون حتى بالصياغة والعبارة الجديدة التي لم يألفوها في كتب التراث كأنهم لم ينظروا كيف عمد القرآن الى مادة اللغة العربية الجاهلية فصاغ منها مصطلحا جديدا وصب في قوالبها اللفظية مفهومات جديدة • ثم لما وافت المسلمين الهجمة الحضارية الاسيوية والهيلينية ــ وهم متوكلون منفتحون ــ استجابوا للتحدي الذي طرحته معارفها وتجاربها ووسعوا اللغة العربية حتى استوعبت معاني التصوف الدقيقة ومصطلحاتها العلوم المضبوطة ومفهومات الفقه الفنية ونهض المسلمون بلغتهم أيما نهضة فلما أدركتهم النكسة ارتد ذلك على اللغة العربية فضمرت وجمدت وأصبحنا اليوم نعول على علوم نحو وصرف ولغة صنفت قبل مئات السنين وتخلفت عن اتساع معاني الحضارة العالمية •

ولكن عصبية التقليد تأبى أن تنفتح لمقتضيات التجديد وتؤدي الى قلق شديد ازاء كل تعبير جديد فضلا عن المعنى الجديد وكثيرا ما نسمع من هؤلاء نكيرا على كلمات معبرة بحجة أنها غير اسلامية ويعنون أنها لم تؤلف في تراث المسلمين ، ويغفلون عن أن امكانات الحياة كلها خلقت لعبادة الله ولو رأينا شيئا منها لدى غيرنا فان واجبنا أن نستولي عليه لنسخره لعبادة الخالق بعد أن كان مستخدما لمعصيته • وكذلك الحكمة هي ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ويتوسل بها الى ربه • ولا نحتاج ازاء الاسلوب التعبدي الجديد أو المعنى الحكيم أو التجربة النافعة أو الاداة المادية الصالحة أن تطلب لها شاهدا من التاريخ أو سابقة من السلف • فاللغة الاسلامية هي كل تعبير كان أو حدث موظفا لاغراض التدين والفقه الاسلامي لا يقتصر على حصيلة التفقه الذي بدأ من وفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى القرن الرابع أو القرن السابع الهجري ، كأن بقية المسلمين لا حق لهم في الاضافة الى الوجود الاسلامي بل هو كتاب لا يتناهى حتى يرث الله الارض ، وليس ما سلف منه الا فقها اسلاميا منسوبا لاهله لهم الفضل في انشائه ولنا الاعتبارية والبناء عليه لنلتمس فضلا لاقتنا بعلاوة نضيفها اليه وهكذا تتعاون قرون المسلمين وتتقدم •

وإذا أثرنا المسلمين وحفزناهم لنهضة جديدة تؤسس على أصول دينهم وتبنى على مكاسب سلفهم فإن ذلك لا ينتسب إلى البدعة مهما تجددت الصور والنماذج الاسلامية وإنما الابتداع المنكر تغيير يعارض معنى الاصل لا تبديل لصور التعبير الواقعي عن ذات الاصل . ومن دواعي اللبس أننا درجنا في استعمال كلمة الاسلام أن نضفي عليها معنى تاريخيا لا أصوليا وبهذا نحسب أنها بالضرورة تناقض التجديد . لكن عبارة الاسلام كما استعملت لأول عهد الدين عبارة مصدرية تشير لكسب الانسان حيث يسلم وجهه لله . وبهذا المفهوم يصح لنا أن نتحدث عن اسلام كل مسلم ونحكم له أو عليه بالقصور أو الحسن ولنا أن نقارن اسلام جيل مع اسلام جيل آخر لنرى حركة الخط البياني لتاريخ المسلمين مقيسا الى المقتضى الامثل للدين . والحكم هنا على الصور التي يعبر من خلالها كل جيل عن مقتضى الدين في زمانهم وظروفهم والقياس على خط تلك الصورة من الكمال كما نصبته أصول القرآن وكما تمثل في نموذج واقعي خالد العبرة مطلق الحجة حفظه لنا الله لنقيس عليه اسلامنا المتجدد المتطور حينا بعد حين . ذلك هو المصطلح الاقرب للغة القرآن التي يغلب أن ترد فيه كلمة الدين أو الاسلام مصدرية تصف فعل الفاعل وترد قليلا بالمعنى القياسي المطلق . أما اليوم

فكلمة الاسلام عندنا ترد تاريخيـة تصف جملة التجارب البشرية المنفعلة أو المنتسبة الى هذا الدين ، بل ترد أحيانا وصفا لكيان ثابت قائم بذاته ، فلا يبالي المتكلم أن يتحدث عن الجهاد في سبيل الاسلام أو الاحتجـاج بأن الاسلام أعطى المرأة حقها مثلا • بينما كان المسلمون ينسبون قصد السبيل ومصدر الاحكـام الى الله فيما هو نصي والى آرائهم فيما هو اجتهادي ولا مشاحة في المصطلح الا ان يؤدي الى سوء الموقف كما يؤدي الحديث المفـو عن الفقه الاسلامي وعن الاسلام بايحاءاته التاريخية الجامدة•

اننا كما قدمت لم نتحرك باسلامنا مع تطور ظـروف الحياة شوطا بعد شوط بل فرطنا حتى تكاثر علينا ركام ثقيل • فحاجتنا اليوم لاكثر من تحديث محدود بل حاجتنا الى ثورة لتبدل التغييرات التي تضاعفت وترسخت حتى تمسخ جملة تديننا وحتى استفـزت بعضنا الى المبالغـة وحسبان مجتمعنا جاهليا محضا من كثرة ما تـرون من غواشي الجاهليـة ومن قلة ما ينزوي من بقايـا التدين • ومهما يكن الشطط في هذا التكيف فان حاجة المجتمـع تستدعي تحولا عاجلا شاملا وثورة حضارية تامة وتبديلا لامر الدين والحياة بغير تغيير لثوابت الاصول والاحكام التي شرعها الله وسنها رسوله في تاريخ المجتمع البشري •

والثورة بعظم التحدي الذي تستهدفه وبنداء قد تصطدم بجمود الواقع التاريخي الديني ، كما تصطدم بأهواء غير المسلمين الذين أسسوا مصلحة حياتهم على ضمانات التعامل مع صور الاسلام التقليدية الجامدة • وقد تجر الى شيء من التعانف في التصدي لهذا الصدام اذا لم تجد الحسنى في الامر • فقد ظل الواقع القائم في مجتمعات المسلمين يجادل دعاة النهضة الاسلامية ويستنصر عليهم باسم القيم الحضارية الغربية وباسم القيم التقليدية الدينية في آن واحد • وعندما أدركت القوى المتمكنة في واقع المسلمين أن معارك الجدال السياسي الحر مع الحركة الاسلامية خاسرة شهرت سلاح القهر لتبسط سلطانها وتقهر ناشئة الاسلام المتجدد ويوشك الجدال أن يفضي الى قتال ويوشك الاجتهاد أن يستلزم الجهاد وتوشك صيحات الصحوة الاسلامية أن تندلع ثورة على الواقع الاجتماعي وانقلابا على قواه المتمكنة •

والله أسأل أن يمهد لحركة الاسلام الحديثة طريقا يمضي بالحسنى الى تبديل واقع المسلمين نحو ما هو أمثل فذلك أرفق بهم وأهون عاقبة وان شاء أن يبتليهم بالاخرى فهو المسئول أيضا أن يعينهم بنصره ليزهقوا الباطل ويدمروا بنيانه فيطهروا أرضهم لتتلقى غرس الحق النبيل •

وحركة الاسلام شهدت تجارب شتى في التجديد بالمجادلة بالحسنى وفي التعرض للعدوان والفتنة من جراء ذلك وهي اليوم تشهد تجارب جديدة في ثورة ايمان في النفوس تنقلب ثورة قوة في الواقع • ولعل أروع نماذجها في الثورة الايرانية الاسلامية التي نسمع قصتها ونعيش عبرتها هذه الايام والتي أرجو أن ألقاكم في أجل قريب لاحدثكم عما وقع في نفسي منها • والسلام عليكم ورحمة الله •

الفهرس